المؤتلف و المختلف في النص الشعري الجزائري المعاصر

" معارضات الشاعر عيسى لحيلح أنموذجا"

مدخل: لقد أخذ الشَّاعر الجزائري المعاصر بمبدأ العودة إلى الموروث الشعري العربي القديم للاستفادة منه في بناء نصوصه الشِّعريَّة المعاصرة، و لإحداث التَّواصل مع القارئ الَّذي يشترك معه في الأرضيَّة . فالموروث الشِّعري أساس الشِّعر الحديث و المعاصر، و هو الخلفيَّة الأساسيَّة للكثير من النُّصوص و الرُّجوع إليه رجوع إلى الأصل ؛ يرجع إليه هذا الشَّاعر أو ذاك ،و هو في كلِّ ذلك يحتكم إلى مرجعيَّته الفكريَّة و رؤيته الجماليَّة، و قد تقتصر العودة إلى الموروث على نصوص معيَّنة أو تكون عودة مؤسَّسة تهدف إلى مراجعة الكثير من النُّصوص الشعرية القديمة، مثلما فعل الشاعر " **عيسى لحيلح**" خاصَّة في نصوصه الأخيرة –معارضاته للمعلقات السبع– "العنترية"، و "ما لم يقله طرفة بن العبد"، و "تعليق على معلَّقة عمر بن كلثوم"، و "تطاول على زُهير" ،و "مع حامل لواء الشُّعراء" ...حيث أعاد كتابة هذه المعلَّقات –السبع– من جديد مرتكزا على بنيتها اللُّغويَّة و محافظا على مطالعها، مبقيا على الكثير من الأبيات أو الأشطر في نصوصه الجديدة ، لربط القارئ بالأجواء الشِّعريَّة القديمة و الحفاظ على ذاكرته الشِّعريَّة .

لقد استلهم الشاعر عيسى لحيلح الموروث العربي الشِّعري القديم و المتمثَّل في المعلَّقات السبع، وحاول قراءة هذا الموروث الشِّعري من جديد و السَّير على خطاه على شكل المعارضات التي عرفناها مع شعراء جيل الإحياء ؛خاصَّة مع محمود سامي البارودي، وعرفناها من ذي قبل في العصر العبَّاسي– معارضة ابن زيدون لنونية البحتري– ، وفي العصر الحديث –معارضة أحمد شوقي للكثير من القصائد القديمة–أبرزها عمل الشاعر يوسف العظم في عمله (ماذا لو أسلمت المعلَّقات)، مع الاختلاف في الرؤى و الأهداف بين هذا الشاعر أو ذاك، و قد التزم فيها الشاعر عيسى لحيلح بالبنية العامَّة للنَّص الشعري الأصلي شكلا و مطلعا و تصريعا ووزنا، مع تكرار القاموس الشِّعري الأصلي و تطعيمه بقاموس شعري جديد يوافق الأهداف و الأوضاع التي يعيشها الشاعر عيسى لحيلح من جديد ووفق النسق العام الجديد.

ولابد من الإشارة في هذا المدخل أن الشاعر بدأ المعارضة الشعرية قبل سنة ١٩٨٦ التي كتب فيها رائيته "معلَّقة الجيل الأخضر "–التي عارض فيها ابن الفارض– و قد كتبتها بين الجزائر و القاهرة و إنبنت على وزن الكامل، و التي يقول في مطلعها :

ثَمِلٌ وَ مَا ذِكْرُ الأَحِبَّةِ أَسْكَرا***وَ الشَّوْقُ أَبْرَقَ فِي العُيُونِ وَ أَمْطَرَا

كما عارض عندما كان طالبا بالجامعة لامية الشَّنفرة :

أقيموا بني أمِّي صدور مطيُّكم فإنِّي إلى قوم سواكم لأميل

ثم جاء مشروع المعارضة الشعرية الموسع –بناء على المعارضة السياسية الواقعية – في معارضته للمعلقات السبع. والعودة إلى الماضي "فكأنِّي بهذه النَّقلة نحو الماضي كأنِّي أبحث عن فضاءات بكر لم تبتذل ... أنتكس نحو الوراء لأعيش اللَّحظة البكر و الزَّمن البكر.."

و لابد من الإشارة أيضا أن الشاعر اتكأ على الموروث الشعري العربي القديم أيضا في ديوانه الأول "وشم على زند قرشي" و استمر في أعماله الشعرية اللاحقة. و إن اكتفى بالمطالع الطلاليَّة في الكثير منها. لأن المطلع أول ما يواجه المتلقي و لذلك يتم التركيز عليه من القديم إلى اليوم.و قد تعددت عوامل العودة إلى الموروث الشعري عند الشاعر فهي: فنية و ثقافية و سياسية و نفسية." لقد كان التراث بالنسبة للشاعر الأرض الصلبة التي يقف عليها ليبني فوقه حاضره الشعري الجديد على أرسخ القواعد

و أوطدها و الحصن المنيع الذي يلجأ إليه كلما عصفت به العواصف فيمنحه الأمن و السكينة". و إن اختلفت الأزمنة و تباعدت النصوص.

من خلال العودة للمتن الشعري للشاعر عيسى لحيلح الذي نحاول من خلاله استنطاق بنياته بعيدا عن الأحكام المسبقة والمعرفة السالفة بالنص والشاعر، لكشف التقاطعات النصية الموجودة بين نصوصه التي عارض فيها المعلقات و المعلقات السبع.

لقد عاد الشاعر عيسى لحيلح إلى الموروث الشعري العربي متوغلا في الماضي ممتدا في المستقبل أو بالأحرى محاولا ربط الماضي بالحاضر والتعامل معه بوعي ، وتحميله بمعاني جديدة دون أقنعة أو مرايا ،أي قراءة هذا الموروث الشعري قراءة نقدية واعية مع الحرص على الجوانب الجمالية ، مع الاستفادة من ظلال العصر الحديث وإسقاطها على الشعر القديم عن طريق إعادة إنتاج نصوص شعرية عربية قديمة ، و لاستحالة الإشارة و الحديث عن معارضة الشاعر لكل المعلقات السبع لضيق الوقت و المساحة المخصصة سنركز على نصيين اثنين هما:" العنترية" و " ما لم يقله طرفة بن العبد" اللتين تتقاطعا بصورة واضحة وجلية مع الأصل، بل قد يأتي صدر البيت دون تغيير عن أصله الأول ويضيف الشاعر عجز البيت فقط بما يقتضي المقام.

المؤتلف(المتشابه . المتشاكل): لم يخرج الشاعر عيسى لحيلح عن عناصر البنية العامة للقصيدة العربية القديمة شكلا ومطلعا و تصريعا، أو عن بنيتها النحوية أو الإيقاعية.. بل يمكن عد الشاعر من " السلسلة الشعرية التي تنحو منحى الأصالة في الرؤيا و التقليدية في الشكل، و التي يتصدرها مهدي الجواهري في العراق ، و البردوني في اليمن، و سليمان العيسى في سوريا و مصطفى الغماري في الجزائر.." فالبناء المعماري والبنية الإيقاعية و البنية اللغوية تتشابه بين النص السابق و النص اللاحق" و يحدث نوع من التداخل والتقاطع وهو تفاعل نصوص يقوم على المشاكلة من جهة والاختلاف من جهة أخرى . ويكون التحول من الشبه إلى المفارقة ... الدلالات فيها تتبادل الحركة ما بين مشاكلة ظاهرية، واختلاف داخلي يثري النص." فالمؤتلف في شعر عيسى لحيلح كما أشرنا متعدد و متنوع بدءً بالتصريع:

في قصيدته "أغنية الغراب" نجد التصريح: لا ترتجيني ..لا تشدي معطفي لا تدرفي دمع الأسى... لا تدرفي

-وفي ديوانه "وشم على زند قرشي" ص١١:قفا نبك قد ولى الحبيب مجافيا وأبقى فؤادي في عراء مناديا

وفي نصه "عبد العزيز":عبد العزيز تحية وسلاما أنت العزيز مكانا ومقاما

هذا في نصوصه الأخرى أما المؤتلف في معارضته للمعلقات، فكان في التصريع أيضا:

"قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل" و إلاّ فكُونا عن بكائي بمعزْل

-لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

-هل غادر الشعراء من متردم" ؟ أعد السؤال كأنني لم أفهم

وفي الوزن تشابهت معارضاته كليا مع المعلقات السبع و لم يخرج الشاعر عن الإيقاع الشعري التي جاءت فيه المعلقات.

و في اللغة حافظ الشاعر على الكثير من المقاطع الشعرية كما هي، و أكملها وفق السياق العام للنص ، و في بعض الأحيان يستثمر لفظة واحدة و يعيد توظيفها في النص الجديد:

_يتقيّأون—حشاك— شعرا غائما "مُرٌّ مذاقته كطعم العلقم"

_ونسيت أني صابر ومصابرٌ "سمح مخالقتي إذا لم أظلم"

فالشاعر بوجه عام كان وفيّا لنص المعلقة ،استثمرها و أعاد قراءتها و كتب نصه المكمل للنص الأول، فهو يتقاطع معها في أجزاء نصية و يختلف معها في أجزاء أخرى، و الاختلاف هو مدار الحديث القادم.

المختلف: " النص المختلف هو ذلك الذي يؤسس لدلالات إشكالية تتفتح على إمكانات مطلقة من التأويل و التفسير ، فتحفز الدهن القرائي و تستثيره ليداخل النص و يتحاور معه في مضطرع تأملي يكشف القارئ فيه أن النص شبكة دلالية متلاحمة من حيث البنية و متفتحة من حيث إمكانات الدلالي" وقد حاول الشاعر لحيلح أن يختلف مع المعلقات السبع التي عارضها وسمى معارضته لها " سبع معلقات للجاهلية الأخيرة".

وسوف نحاول التركيز على ما هو مختلف في بعض معارضاته فقط لأن الحديث عن كل القصائد يستغرق وقتا أطول ومساحة ورقية أكبر. لنكشف النسق الدلالي للنص الجديد ونص المعلقة، لأنه و إن ضمن الشاعر أنصاف الأبيات من المعلقة ليحدث التداخل مع كينونة النص الجديد له– لأن القصيدة استدعت ذلك–فإن سياق النص الجديد يختلف عن سياق نص المعلقة.

و على الرغم من الاختلاف فالتفاعل بين النص الشعري عند الشاعر عيسى لحيلح والمعلقات ،كان على عدة مستويات: تضمين بعض الأبيات أو الألفاظ من المعلقات (محاكاة و تحويل) وفق سياق نصي جديد أو استثمار كلمة من المعلقة و جعلها مفتاحا دلاليا منزاحا. و إن كان تعامل لحيلح مع المعلقات بطريقة اجترايه على مستوى الألفاظ وكذا على مستوى المقدمة الطلالية ومستوى الإيقاع الشعري. فقد جعلها مطية للقول و الاستزادة و الخروج عن سياقها الأول إلى سياقه الجديد.

لأن الاشتغال التناصي على المعلقات كان بغرض محاكاتها من جهة ومن جهة أخرى من أجل معارضتها حيث لم يقتصر التفاعل مع المعلقات على بعض الأبيات الشعرية بل تشمل نص المعلقات بصفة كاملة وعامة. ولم يتم الخروج عن إطار المعلقات إلا محاولة الوصول إلى معنى مخالف في بعض المقاطع. و قد كان الاستثناء في العديد من المقاطع حيث تحقق فيها إعادة كتابة هذه النصوص –المعلقات–وإنتاجها وفق رؤية الشاعر وظروفه السياسية الجديدة. لأن "المعارضة تبنى على ملمح المفارقة بين النص المعارض والنص المعارض." و هو ما يجعلنا أمام نصين اثنين بأسلوبية متقاربة. لأن القارئ اليوم الذي يقرأ نصوص الشاعر عيسى لحيلح لم ينس النموذج القديم فبمجرد القراءة يضن أنه أمام نص بديل، إن لم يكن في مستواه فإنه لن يلتفت إليه.

فالمختلف الأول هو العنوان،فعناوين القصائد كانت كالتالي: –"ما لم يقله طرفة بن العبد".–"تعليق على معلقة عمرو بن كلثوم".–"تطاول على زهير". –"مع حامل لواء الشعراء".–"العنترية".

فالشاعر عيسى لحيلح حاول أن يستدرك ما لم يأت في نص طرفة بن العبد، و علق على معلقة عمرو بن كلثوم تعليقا سياسيا، و تطاول على زهير شعريا و هو القامة الشعرية العربية التي شكلت مدرسة شعرية استمرت في الزمن إلى اليوم، أما معارضته لعنترة بن شداد فحملت اسمه –العنترية– و كأني بالشاعر يفرده دون غيره من شعراء المعلقات بهذا التميز و الإيثار، و يريد أن يكون نصه في مرتبة العنترية. لأنه يدرك أنه" ليس من المعاصرة في شيء أن يتحول الإنتاج الشعري إلى نسج على منوال ما بغية تأكيد القدرة على إنتاج نسخة مطابقة للأصل"

أما المختلف الثاني ،فهو تطويع النص السابق للحديث عن التجربة الجديدة المغايرة في السياق و النسق فهو مع حامل لواء الشعراء يقول في المطلع:

"قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل" و إلاّ فكُونا عن بكائي بمعزْل

تنسمتُ ريح الراحلين و روحَهمْ تشَرّشَ رُوحا في جنوب و شمأل

أُصَعّدُ آهاتٍ ،و أكْتُمُ حرَّها فكانت لقلبي كالملاءِ المذيّلِ

و أذللت دمعا—يا لدمعي—كأنّه بهارٌ على خدِي أو حَبُّ فُلفُلِ

إذا ما رآني–من رآني —يصيحُ بي:- لكم تُشْبِهُ يا هذا ناقِفَ حنْظَلِ

أتذكُرُ من ينسى و تقْرُب من جفا لك الويل.." لا تهلك أسىً و تجَمّلِ

و في آخر بيت يقول:

و تسألني:هل من مزيدٍ؟..فلاقني صباح غدٍ بين "الدخول" و "حومل"

وكأننا أمام نص مدور بدأ بشطر المعلقة الأول و أنهى النص بلغة الشطر الثاني من المعلقة، سار و عاد من حيث المبتدأ، ليجعلنا في جو المعلقة ، و جو معارضته الجديدة، فالأمكنة تختلف لكن الهموم تتشابه، و القصائد خير معبر عن تلك الهموم و التجارب، و هي تسعى أن تجد مساحة قرائية كبيرة، عن طريق الاتكاء النصي و كذا عن طريق المخالفة و المغايرة و المخاتلة.

أما في نصه "تعليق على معلقة عمر بن كلثوم" ،و إن تشابه معه في اللغة و الحدة فهو قد اختلف معه في القضية السياسية المطروحة فمن العصبية القبلية إلى قضايا كبرى تتعلق بالأمة الجزائرية، و العربية بصفة عامة —لأن النص و إن كان محليا فهو من ناحية القراءة يأخذ الصبغة العربية–و عندما نعود إلى آخر النص نجده يقول:

و لست بقائل للناس: صبرا فان الخير عقبى الصابرينا
و لكني أصيح بكل صوتي : أعيدوا ما لنا يا سارقينا
...
سنعطيكم و نعطيكم كثيرا لأن قد ولدنا قانعينا
"أباذر" و للطلقاء ذلت رقاب السابقين الأولينا
"إذا بلغ الفطام لنا صبي " يساق إلى صحارانا سجينا

و بالعودة إلى النصين المختارين كنموذجين لهذه المداخلة فإننا نجد المختلف عبر مفاصل النص بدء من المطلع إلى خاتمة النص:

فالمختلف الأول شكلي و هو في عدد الأبيات في كل نص: معلقة عنترة بن شداد العبسي جاءت في ٧٥ بيتا و معارضة عيسى لحيلح للمعلقة في ٧٩ بيتا

المختلف الثاني يتمثل في المطلع الطلالي أي بداية النص:

"هل غادر الشعراء من متردم" ؟ أعد السؤال كأنني لم أفهم
"هل غادر الشعراء من متردم" ؟ أعد السؤال علي دون تلعثم
أعد السؤال "أبا المغلّس" إنّني من محنتي مثل الأصمّ الأبكم !
أنبيك أن الشعر صوَّح روضه الـ قدسيٌّ، والشعراء محض توهم

ولى اليسار مع "اليسار" فأيسروا جهة اليمين وراء رنّة درهم
يتقيّأون—حشاك— شعرا غائم "مُرٌّ مذاقته كطعم العلقم"
باسم الحداثة هدّموا وتهدموا وتبخّروا وسط الكلام المعتم
وتوقحوا باسم الحداثة. ويحهم! لم يبق شيء عندهم بمحرّم

فلم تكن مقدمة المعلقة إلا لإبراز رؤية الشاعر إلى الأحداث في الجزائر في مرحلة ما ، و إن تشابه نص لحيلح مع نص المعلقة لغة فإنه اختلف معه رؤية و معنى.

أما المختلف الثالث فهو عبلة فهي في النص المعارض غير عبلة عنترة:

ما دار"عبلة"..ما "الجواء"، وها هنا وطن يجوز به الوقوف كأرسم!
وطن تداركه الإله برحمة " لا يشتكي الطعنات غير تحمحم"
أشلى عليه الحاقدون كلابهم "سودا كخافية الغراب الأسحم"
ولقد ذكرتك والقذائف حولنا أو فوقنا مثل اندفاق جهنّم
والطائرات تفّح فضلة سؤرها ناراً تلظّى مثل لون العندم!
و"الهاون" يرعش فوقنا سحب الفضا "غرِداً كفِعْل الشارب المترنم

أما المختلف الرابع في النص فهو النص المحور : فهو هنا الوطن، على خلاف نص المعلقة :

لم يحل بعد الله ثمّ محمد اسم سوى اسم "الجزائر" في فمي
قد كنت يا وطني وما يأتيك من يأتيك إلا في ثياب المحرم
فهنا طواف الثائرين، وها هنا ركن الإباء .. هنا روائح "زمزم"
في كلّ شبر من بلادي بصمة للحزن فالصمان فالمتثلم
في كل دار "عبلة" مفجوعة بأب وإخوان وزوج أو عم
ما "عبلة" – لوْ زانها نور الهدى – إلا حرائر موطني في موسم

كما يختلف نص الشاعر عيسى لحيلح –و هو الأمر الخامس–عن نص المعلقة في خاتمة النص التي ارتبطت بالنص المحور:

كل الشهور – ولا أعدّ نفمبرا – يا أيها العبسيّ ضرّجها دمي

نحن الألى ما صيح في سمع الدني – يا غارة الله اركبي وتقدّمي
لا نحتمي من طعنة إلاّ بشهقة طلقة، وبغيرها لا نحتمي
ما عزّ من حقدت عليه صدورنا حتى ولو نال السماء بسلّم

و الأمر نفسه–أي الاختلاف– مع نصه "ما لم يقله طرفة "؛فمعلقة طرفة بن العبد في ١٠٣ ومعارضة عيسى لحيلح للمعلقة جاءت في ٧٣ فقط. و على خلاف النص السابق الذي زاد من عدد ابياته، –٠٤ أبيات–انقص الشاعر هنا ٣٠ بيتا شعريا. لأنه أضاف ما لم يقله طرفة بن العبد.

و يبدأ الاختلاف من بداية النص التي جاءت مغايرة للمعلقة و إن اقتفى أثره:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد لها في الحنايا ألْف سهم مسدد
وقفت بها والريح تنثر آهتي و تمحو –لها الويلات -آخر مشهد
وقفت،و كان الليل يذرو رماده و شمس مسائي ذكرتني بأرمد
وقفت بها و الواقفون بها معي يقولون لا تهلك أسى وتجلّد
فقلت نصيحي بالتجلّد حاسدي و ناصح قلبي بالتوجُّع سيدى

أما النص المفصلي أو النص المحوري في المعارضة الشعرية فهو يمثل رؤية الشاعر المخالفة لرؤية الشاعر طرفة بن العبد الحياتية:

ولولا ثلاث هنّ كل حقيقتي " لعمرك لم أحفل متى قام عودي
فمنهن إغضاب الطغاة بموقف أبيّ شريف لا يلين لمعتدى
وإعزاز دين -لا حياة بدونه بروحي وقلبي ثم فكرى وباليد
ونصرة مظلوم بردعة ظالم غويّ بعيد في الضلالة مفسد

و لم يختلف الشاعر مع نصوصه الأخرى التي عارض فيها المعلقات، في تحميل النص الجديد قضايا الأمة لا قضية القبيلة أو الفرد، و عليه اختلف مع النص السابق، بالحديث عن فلسطين:

فلسطين يا مهوى قلوب تشتت و يا نبض جرح غائرٍ متجدد
يفيض على الدنيا طيوباً تعطرت بأنفاس عيسى وابْتسامة أحمد
تضيق المسافات الوقاح وتنثني تقئ سلاها فوق حسرة مُلْحدِ
و تخضر من حمر الدماء مسافتي فكل شهيد فيه صرْخة مولدِ
إذا مات منا من يموت فإنما ليسقي جذور الزاحفين الى الغد

أما في آخر النص فإنه يترك رسالة أو وصية قائلا:

إذا مِتُ – يا أم البنين فكبري و شدّي على القلب الكسير وزغردي

وسميّ الذى يأتي باسمي لعله يقوم مقاماتي ,و يشهد مشهدي

و هو في كل ذلك يكتب نصه الذي لم ينكتب بعد بطريقته الخاصة، حيث انطلق من المعلقة ،من الأصل ،و سرعان ما تحرر منها وأخرج لنا نصا أو بالأحرى نصوصا تتشابه في جزء منها مع الأصل و اختلف في أجزاء منها معه. فالمكان اختلف و الزمان تبدل لكن " الشعر بطبيعته و مهمته واحد سواء وجد في القديم أم الحديث، فالشاعر- أي شاعر- مدفوع بضغط من الشعور المسيطر إلى لإخراج ما بداخله من أشكال لغوية معبرة و مؤثرة و جميلة. و هو يستند في ذلك كله إلى إمكاناته الشخصية و امتدادات خياله داخل موجودات عصره و أشيائه لتأليف ذلك القول ، لهذا تغدوا الفروق فروقا في سمة هذه الأشياء و تنوعها، و مدى تقاطعها و ترابطها: إفرادا و تركيبا داخل النص الواحد و في الزمان و المكان اللذين أنتج فيهما " (٠٩). وإن ظهر أنهما يتشابهان فهما يختلفان في الرؤيا الفكرية و المقصدية و الدلالات.

خاتمة:

لقد عاد الشاعر الجزائري المعاصر إلى الموروث الشعر العربي القديم _من العصر الجاهلي إلى العباسي-و إلى الشعر الحديث و المعاصر و تناص بشكل واضح مع مختلف النصوص بصيغة أو بأخرى، و أعاد صياغته أو بالأحرى قراءته- القراءة الهادفة البانية-و هو بذلك ساهم في إغناء نصوصه الفردية أو المدونة الشعرية الجزائرية المعاصرة التي أصبحت في الكثير من نماذجها لا تختلف عن النصوص الشعرية العربية. وصنع شعريته لأن" الشعرية ليست زينة تضاف إلى النص أو تُخلع عليه كيفما اتفق و في أي وقت اتفق ولا هي بالحلية التي يؤتى بها من خارجه لتزينه و تجمله، و إنما الشعرية من النص لبه و حقيقته يوظفها النص فيحدث بها مالا يحدثه النص من الكلام العادي، و ينحرف بها النص من الخطاب العادي إلى الوظيفة الشعرية ." وهو ما نجده في نصوص الشاعر عيسى لحيلح و في نصوص غيره من الشعراء الجزائريين .

ملاحظة: للتطبيق مراجع